Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

المنهج الصوفي عند الشيخ عبد السلام الأسمر

د. إبراهيم خليفة عبد اللطيف*

مقدمـة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم، واستن بسنتهم إلى يوم الدين، وبعـــد

فإنـه لا يخفـى على صاحب العقل السليم، أنَّ الوصول إلى الله تعالى وطـلبه من الغايات السَّامية التي استهدفها الإنسانُ، فجاءت الرسالات السَّماويَّة لتُرْشِد الإنسان طريق الوصـول، وفـق مـنهج ربَّانـي ارتـضاه الحقُّ طريقًا للوصول إليه، ويعتبر المنهج الصوفي طريقًا يَصِل بسالكيه إلى الله عزَّ وجلَّ.

لكن اختلف الناس في كيفية التحقق بهذا المنهج، فكل يتراءى له حسبما تؤديه إليه بـصيرته، أو يـذهب بـه فكـره، ممـا جعـل الأمر ليس سهل المنال، بل لابد من مرشد أو معلم، أو شيخ لتلقي العلم على يديه، حتى لا يضل الناس الطريق، ولا يترك الإنسان –في ظل متاع الحياة– حيران تائهاً، يتخبط بين السبل، تاركا سبيل الرحمن.

وفي ظـل هـذا الاخـتلاف قـيض الله رجـلا مـن أهل الحق، الذين تسلحوا برؤية أصـيلة، وبمـنهج صـوفي قـويم جمـع فـيه بـين الفقـه في الـدين، ورسوخ القدم في فهم التـصوف، وانخـراط موفـق مـوزون في التجـربة الـصوفية، وكـان مقصده وغايته، تجلية الـسحب الملـبدة الـتي أرخت بظلالها على طريق السالكين الأتقياء من أهل هذا الطريق وأصـحابه، إنـه: الـشيخ عبد السلام الأسمر، صاحب منهج صوفي متين، وقدم راسخة في

* جامعة 7 أكتوبر.

درب التصوف أمام سالكيه.

وقد جاء منهجه حافلا بما يُنير الطريق ويضيء مدارجَه، ويُبيِّن معالمه، ويُرشِد إلى أركانه، مستهدفًا إقامة هذه الأركان على أسسِها القويَّة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

لقد أدرك الشيخ عبد السلام الأسمر قيمة طريق التصوف، فأخذ على عاتقه مهمة بيانه للناس، بل لقد سعى سعياً حثيثاً نحو غرس علامات مضيئة في طريق التصوف، ولم يكن مسعاه هذا خلواً من الصعوبات والعقبات، كما لم يكن بمنأى عن أن تُصوب ضده وحوله سهام خصوم وأعداء رغبوا عن طريق التصوف الذي حمل لواءه، لكنها لم تُغيِّر من صموده وعزيمته القوية في إنارة طريق السالكين، وإرساء معالم هذا الطريق واضحة جلية للمريدين، ولكل سالك لطريق التصوف، وقد ساعده على هذا كله تسلحه بمنهج واضح مستقيم، تجلت ملامحه في مصنفاته، وخاصة في كتابيه: الأنوار السنية، ورسائل الأسمر إلى مريديه.

ولما كان الأمر هكذا أردت أن تكون لي سباحة في بحار الصوفية، أغوص بها إلى أعماقها، كي ألتقط منها ما يلهمني جانبا من الدقائق والحقائق، تجلية لبعض جوانب المنهج الصوفي عند الشيخ عبد السلام الأسمر، من حيث إنه طريق السالكين إلى رب العالمين، الذي يتطلب تجربة نفسية يعيشها السالك بحالة شعورية تجمع بين الفكر والسلوك والعاطفة، وتصوّر كيان الإنسان في لقائه مع هدفه، وقد حلّى نفسه بأعمال القلوب التي ينعكس أثرها على الجوارح سلوكا والتزاما.

وفي هذا البحث الذي عنونت له بـ(المنهج الصوفي عند الشيخ عبد السلام الأسمر). أحاول إلقاء الضوء على هذا المنهج الصوفي، مبينا هل التزم الشيخ منهجا خاصا، أم كان متأثرا بأسلافه، وما دعائم هذا المنهج، وما هي المعالم الأساسية له، وهل كان له طريقة أم لا؟ وهل كانت طريقته بناء أم استمدادا، وهل ما زالت موجودة أم لا؟ إلى غير ذلك من الأسئلة، التي سيتضح من خلال الإجابة عليها، تجلية حقيقة المنهج الصوفي عند الشيخ عبد السلام الأسمر.

وقد سلكت في بيان ذلك المنهج التاريخي أحيانا، والمنهج الوصفي أحيانا أخرى، وفي بعض الأحيان يتحتم المنهج النقدي. ويشتمل البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

فالمقدمة: تناولت فيها أهمية الموضوع، وسبب اختياره، وأسئلة الدراسة، وهدفها،

والمنهج المتبع فيها، والمباحث التي تضمنتها وهي ثلاثة:
المبحث الأول: حياته ونشأته. وتناولت فيه: اسمه ونسبه، ومولده، نشأته وطلبه للعلم، وشيوخه، وتلاميذه، ومؤلفاته، ووفاته.
المبحث الثاني: دعائم التصوف عند الشيخ عبد السلام الأسمر. وبيّنت فيه أن الشيخ قد بني تصوفه على العقيدة الصحيحة، والالتزام بالتكاليف الشرعية.
المبحث الثالث: معالم التصوف عند الشيخ عبد السلام الأسمر. وتناولت فيه أهم المعالم وهي: التربية، والذكر، والوجد.
والخاتمة: واشتملت على خلاصة البحث وثبت المراجع وفهرست الموضوعات.

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول: حياته ونشأته

أولا: اسمه ونسبه

هو عبد السلام بن سليم بن محمد بن سالم بن حميد بن عمران بن محيا بن سليمان بن سالم بن عمران بن أحمد بن خليفة بن عبد الله بن عمران بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد القادر بن أحمد ملقب بعبد الرحيم بن محمد بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- وابن السيدة فاطمة الزهراء عليهما السلام بنت رسول الله ﷺ(1).

سبب تسميته بالأسمر

سمي الشيخ عبد السلام بالأسمر لأنه كان يحيّ الليالي سمرا في طاعة الله، وفي هذا يقول الشيخ الأسمر: سميت بالأسمر لمبيتي الليالي سمرا في طاعة الله سبحانه وتعالى(2).

1- راجع: تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار، المسمى مواهب الرحيم في مناقب مولانا سيدي عبد السلام بن سليم، لكريم الدين البرموني، ص 74، 75ط النجاح بطرابلس بليبيا، وكذا رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق ودراسة، د. مصطفى عمران رابعة، ص 11-13 ط أولى 2003م دار المدار الإسلامي بيروت لبنان.
2- راجع: تنقيح روضة الأزهار ص 87.

ثانيا: مولده

ولد الشيخ الأسمر في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول لعام 880هـ-1475م في مدينة زليتن بليبيا.

ثالثا: نشـأته

تـوفي والـده ولـم يـتجاوز العـامين بـشهرين. فقامت والدته بتربيته تربية إسلامية، وتـولى أمـره والقـيام بـشئونه وتـربيته في الـصغر، عمّـه أبـو العـباس أحمـد بـن محمد الفيتوري، وكان له باب في الفهم والحفظ، وإتقان العربية وغيرها من العلوم[3].

وهكـذا تربـى الأسمر في أحضان بيت علم في النحو، والمنطق والتوحيد والفقه، وغير ذلك من العلوم.

رابعا: طلبه للعلم

أدخلـه عمّـه الـسيد أحمـد بـن محمـد الفيتو ري في الكتّاب ليتعلّم القرآن، حتى أصبح من الماهرين الحافظين في مدة قليلة، وعلى عادة الأولين الطيبين الحافظين، وفي بـواكير صـباه حمله عمّه إلى الشيخ عبد الواحد الدوكالي، والشيخ أحمد زروق البرنسي، للعلـم، وفي زاويـة الدوكالـي اشتد عود الأسمر ونضجت ثقافته، وتأسس علمه، وأسلكه الـشيخ في طـريقته (العروسـية) وفي هـذا يقـول: « فلمـا بلغت مبلغ الرجال قال يا عبد السلام اذهب لتنتفع بك الناس الشيخ ما يخدم شيخا »[4].

خامسا: شيوخه

يعتبر الشيخ عبد الواحد الدوكالي أهم أساتذته بالإضافة إلى كونه أخذ العلم عن العديد من أعلام المالكية، ومشايخ التربية والسلوك، وقد بلغ عددهم نحو ثمانين شيخا، ومـنهم: الـشيخ أبـو العباس أحمد بن محمد الفيتوري، والشيخ علي بن عثمان الفيتوري، والـشيخ أحمد زروق الفاسي، والشيخ عبد الله العبادي، والشيخ عبد النبي بن عبد المولى،

3- راجع: تنقيح روضة الأزهار ص91، ورسائل الأسمر ص20، 21.

4- الأنوار السنية، الشيخ عبد السلام الأسمر ص14 ط 1964م دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة.

والشيخ علي العوسجي، والشيخ محمد بن عبد الرحمن الحطّاب، وغيرهم[5].

سادسا: تأسيسه للزاوية الأسمرية

أسس الشيخ الأسمر مركزا إسلاميا لا يزال إلى الآن يشع نورا ومعرفة في مدينة زليتن بليبيا، يُدَرِّس فيه القرآن، والفقه، والعقيدة، والتربية، والتصوف، وغير ذلك من العلوم.

وتوجد حاليا بجوار زاوية الأسمر في مدينة زليتن بليبيا، (الجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية) في محاولة لمواصلة مسيرة الشيخ عبد السلام الأسمر، بارك الله في القائمين عليها وزادهم الله شرفا وتعظيما وإجلالاً بتعظيمهم للعلم.

وقد سلك الشيخ الأسمر سلوكا راقيا في الدعوة عماده المحبة والصبر وظهر ذلك جليا في قصائده الكثيرة كما في رسائله ومكاتباته إلى المسلمين من تلاميذ ومريدين وإخوان في شتى أصقاع المعمورة.

ومدار طريقته (العروسية) هو الإخلاص في الأقوال والأعمال والأحوال والتواضع لجميع الخلق وذكر الله في كل فعل من الأفعال من أكل وشرب ونوم ولباس وجميع ما ورد عن النبي ﷺ، والتمسك بالسنة المحمدية في كل ذلك، وفي هذا يقول الشيخ الأسمر: « والله أسأل أن يحقق نسبنا بهذه الطائفة العروسية المستندة للشاذلية وأن يتوفانا على محبتهم وأن يجعلنا دارجين على مدرجتهم وأن يزدنا منهم ودا وأن يجعلنا ممن لا ينقض لهم عهدا بمنه ولطفه إنه جواد كريم قوي متين »[6].

وقد بذل الشيخ في حياته جهدا كبيرا، وعانى كثيرا حتى استطاع أن يسير بركب الدعوة إلى بر النجاة، ومن ثم ترك منهجا صوفيا تربويا له دعائمه من الكتاب والسنة، وله معالم يتميز بها كما سيتضح فيما بعد.

سابعا: مؤلفاته

تجاوزت جهود الشيخ الأسمر إلقاء الدروس والخطب والمواعظ وتربية المريدين، إلى التأليف والتدوين، ومن ذلك:

5- راجع تنقيح روضة الأزهار ص 93، ورسائل الأسمر إلى مريديه ص26.

6- الأنوار السنية، الشيخ عبد السلام الأسمر ص6.

1. الوصية الكبرى، أو نصيحة المريدين في سر الأولياء والصالحين.
2. الوصية الصغرى لمن أراد الدخول في طريقتنا من الفقراء.
3. الوصية الوسطى.
4. رسالة مختصرة في العقيدة الإسلامية وأصولها.
5. الأنوار السنية في سندي للطريقة العروسية.
6. كتاب العظمة في التحدث بالنعمة.
7. التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية[7].

ثامنا: كراماته

الممعن النظر في تاريخ حياة الشيخ الأسمر، يقف على كم هائل من الكرامات التي تشكل شخصية الشيخ الأسمر، ومنها: أنه كان يحدّث الصبيان في المكتب، ويقول للواحد منهم لقد أكل أهلك كذا وكذا، ثم يتبين أن ذلك وقع، ومنها: حضوره في الشدائد، ومنها: إتيانه بالأسرى، قيل وذلك متكرر منه مشاهدة، ومنها: رؤيته للنبي واجتماعه به[8]. إلى غير ذلك من الكرامات، وإن كان وجد عليها اعتراضات كثيرة، حتى قيل في حقها: وهي في معظمها كرامات لا يقبلها عقل ولا يستسيغها منطق.

وقيل إن هؤلاء الذين دفعهم حبهم للشيخ أخذ بهم هذا الحب في الاستغراق في أودية الخيال حتى طار بهم عن عالم الواقع، بما أضافوا إليه من خوارق وأوهام وأساطير، ومبالغة ممقوتة تجعل الكرامة تصادم العقل وتقع في دائرة المستحيل[9].

إلا أن هذا لا ينفي وقوع الكرامة خاصة وإن ظهرت على يد عبد ظاهر الصلاح متبع لشرع النبي ﷺ يعرض أعماله -كما قال- على الكتاب والسنة، ويدعو إلى اتباعهما فهما الأصلان الكريمان.

تاسعا: وفاته

بعد عمر حافل بالعطاء، توفى الشيخ عبد السلام الأسمر-رحمه الله- بمدينة زليتن بليبيا ودفن بها، وذلك في يوم الخميس بعد صلاة العصر في العشر الأواخر من

7- راجع: رسائل الأسمر إلى مريديه، ص 51، 52.
8- راجع: تنقيح روضة الأزهار، ص 122 -139.
9- راجع: رسائل الأسمر إلى مريديه، ص42 -45.

رمضان عام 981 هـ-1573م[10].

عاشرا: ثناء العلماء عليه

قيل في حقه عبد السلام الأسمر عَلَم صوفي قل نظيره في الجد والسعي إلى السلوك الرباني ويعتبر بحق مجدد الطريقة العروسية. **وقيل** عالم الشرفاء وشريف العلماء، صاحب الكرامات الكثيرة، عالي المقامات، الإمام الصادق الشهير بالقطر الطرابلسي[11].

وقيل: الإمام العلامة والحجة الفهامة، صاحب العلوم اللدنية، والمعارف القدسية، الشيخ العارف مستجمع العلوم والمعارف، إمام أساطين العارفين، قدوة المريدين، نبراس السالكين، الشيخ عبد السلام الأسمر[12].

وقيل في رثائه:

أيا فقراء الله حق لنا البكا ... لموت إمام عظيم الله منشاه
وأعني به شيخ المشايخ كلهم ... سليل سليم الليث ظاهر مسماه[13]

قال صالح الجعفري يمدح الشيخ عبد السلام الأسمر:

عبد السلام لك السلام تحية ... مني فأنت الغوث للأحباب
وعليك من ربي رضاء دائم ... يبقى مدى الأيام والأحقاب
نسل الكرام السادة الأمجاد ... من آل النبي الصادق الأواب
عبد السلام بك البلاد تشرفت ... وتباركت بالذكر للوهاب[14]

وهكذا كانت أقوال العلماء في رثائهم وثنائهم على الشيخ الأسمر.

المبحث الثاني: دعائم التصوف عند الشيخ عبد السلام

يقوم بناء التصوف عند الشيخ الأسمر على أسس ودعائم ثابتة وراسخة وأهمها:

10- راجع: تنقيح روضة الأزهار، ص 228.

11- راجع: ومضات من تاريخ الفكر والثقافة في ليبيا، الأستاذ مصطفي عبد الرحيم أبو عجيلة ج2 ص 48، 49 ط دار رباح مصراته ليبيا.

12- راجع: القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني ص28، ط1992م دار الكتاب الليبي بنغازي ليبيا.

13- راجع: تنقيح روضة الأزهار ص 229.

14- راجع: ملحق بآخر كتاب الأنوار السنية، كتبه الشيخ صالح الجعفري.

أولا: العقيدة الصحيحة

اهتم الشيخ الأسمر بالقواعد الأساسية لبناء العقيدة الإسلامية الصحيحة لدى مخاطبيه، ولذا يقول في معظم مقدمات رسائله «أوصيكم ونفسي بتقوى الله، واتباع سنة رسول الله ﷺ التي هي المحجة البيضاء، وبتصحيح إيمانكم، وبالنظر والاستدلال وذلك أول الواجبات»[15]. ويقول: «فأول ما أوصيكم بمعرفة الله سبحانه وتعالى، وما يجوز في حقه، وما يستحيل»[16]. ويقول: «فأول ما يجب عليكم تصحيح إيمانكم»[17].

فمن هذه النصوص نرى أن الشيخ الأسمر اهتم ببيان العقيدة الصحيحة، وهذا ما هيمن على رسائله وبخاصة في رسالته إلى راشد بن يحي المحجوبي، ورسالته لأصحابه بغريان.

ففي الرسالة الأولى نجده قد ضمّنها مقدمات علم العقيدة، كما بينها الإمام الأشعري[18]، والإمام السنوسي[19]، يتضح هذا جليا من قوله: «اعلم أني أوصيك بتصحيح إيمانك على ما قرره الإمام الأشعري، والقدوة إمامنا السنوسي في عقائده»[20].

والسر في هذا يرجع إلى اهتمام والتزام كل من الإمام الأشعري والإمام السنوسي لمنهج أهل السنة والجماعة، وهو المنهج الذي ارتضاه معظم سكان الشمال الأفريقي في المجال العقدي والتزموا به[21]. وهذا ما جعله يؤكد ذلك قائلا: «فإذا جلستم مع أهل التوحيد فحدّثوهم بالعقائد الأشعرية والسنوسية»[22].

15- من رسالته إلى أصحابه بطرابلس، ضمن رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع تحقيق د. مصطفى عمران ط أولى 2003م دار المدار بيروت ص214.

16- من رسالته إلى أصحابه بسوس ص 285.

17- من رسالته إلى أصحابه بتمبكتو بمالي ص 232.

18- هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، مؤسس مذهب الأشاعرة، ولد سنة 260هـ-874م بالبصرة، وتوفى سنة 324هـ-936م ببغداد، راجع العلام للزركلي ج4 ص 263.

19- هو أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، ولد بالجزائر سنة 835هـ-1428م وتوفى سنة 895هـ 1490م، راجع: الأعلام للزركلي ج7 ص154.

20- من رسالته إلى راشد بن يحي المحجوبي ص 140.

21- راجع: رسائل الأسمر إلى مريديه ص 91.

22- من رسالته إلى أصحابه بتمبكتو بمالي غرب إفريقية ص 243.

وفي الرسالة الثانية نلمس فيها بعض قضايا علم العقيدة، كالنظر والاستدلال، والمعرفة، وصفات الله تعالى، والإسلام والإيمان، مؤكدا ضرورة السير وفق ما قرره الأشعري والسنوسي، وذلك في قوله: « عليكم بالتوحيد وهو مذهب الأشعري، والأستاذ السنوسي »[23].

وبيان هذه العقائد على الوجه التالي:

1. النظر والاستدلال

يبدي الشيخ الأسمر سؤالا ويجيب عليه، وفحوى السؤال: فإن قال قائل: هل النظر والاستدلال أول الواجبات أم الإيمان بالله تعالى؟فيقال له: إن العلماء اختلفوا في ذلك على قولين: فمن قال إن النظر والاستدلال أول الواجبات استدل بقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: 101]، ويذكر في ذلك قول أبي جعفر السمناني[24] من جعل النظر والاستدلال أول الواجبات، فقل له: متى يجب على العبد الإيمان بالله، ويلقن العبد وإن كان في المهد ينشأ عليه، ويضمن به نفسه، فإن مات هذا العبد قبل البلوغ مات عبدا مسلما، وإن بلغ حد التكليف، فحينئذ يلزمه النظر والاستدلال والبحث عن معبوده، وبذلك قال الغزالي[25] وبه قال تلميذه أبو الوليد الباجي[26]، وجماعة من العلماء رضي الله عنهم أجمعين.

وينتهي الشيخ الأسمر من ذلك إلى أن ما عليه أئمة وعلماء المسلمين هو: أن الإيمان بالله هو أول الواجبات، ومعنى النظر والاستدلال: أن ينظر بين الصانع والمصنوع، وأن كل صنعة تفتقر إلى الصانع الذي صنعها واخترعها وابتدعها، والصانع هو الله، والمصنوع خلقه[27].

23- من رسالته إلى أصحابه بغريان ص 204.

24- وهو قاضي حنفي أشعري ولد سنة361هـ- 972م وتوفى سنة444هـ- 1052م بالموصل، راجع: الأعلام للزركلي ج5 ص314.

25- هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الملقب بحجة الإسلام، ولد بخراسان سنة 450هـ-1058م، وتوفى سنة 505هـ-1111م، راجع: الأعلام للزركلي ج 7 ص22.

26- هو: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد القرطبي الباجي، فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث، ولد في باجة بالأندلس سنة 403هـ-474هـ/1012-1081 م وتوفي بالمرية، راجع: الأعلام للزركلي ج 3 ص 125.

27- راجع: رسالته إلى أصحابه بغريان ص 190، 191.

ولا يتعارض هذا مع قوله: « أوصيكم وأوصي نفسي ... بالنظر والاستدلال، وذلك أول الواجبات »[28]. لأن مقصود الشيخ كما اتضح مما انتهى إليه أن المطلوب ليس مجرد الإيمان ولكن الإيمان المبني على معرفة الله تعالى المؤدي إلى اليقين، وهذا ما سيتضح من النقطة التالية.

2. المعرفة

يرى الشيخ الأسمر أن المعرفة هي: الجزم المطابق لما في نفس الأمر عن دليل وبرهان، أما التقليد فهو: الجزم المطابق في عقائد الإيمان بلا دليل[29].

وكذلك يرى أن معرفة الله تعالى لا تكون إلا بعد أن يعرف العبد نفسه، لذا يقول: « إن معرفة الله لا تكون إلا بعد معرفة النفس، من عرف نفسه عرف ربه، فمن عرف نفسه بالعجز والعبودية، عرف ربه بالقدرة والربوبية، ومن عرف نفسه أنه محدث فإنه عرف ربه أنه قديم باق، ومن عرف نفسه بالشهود والعيان، عرف ربه بالغيبة والحضور »[30].

وهنا نرى أن أثر المذهب الأشعري واضح في منهج الشيخ الأسمر، من حيث إن الأشعري يرى أن أول واجب على المكلف هو: معرفة الله تعالى ووحدانيته، وأنه صانع العالم، وسائر صفاته، وسائر أحكام الألوهية.

يقول الإيجي: « قد اختلف في أول واجب على المكلف أنه ماذا فالأكثر ومنهم الشيخ أبو الحسن الأشعري على أنه معرفة الله تعالى إذ هو أصل المعارف والعقائد الدينية وعليه يتفرع وجوب كل واجب من الواجبات الشرعية »[31].

وإنما كانت المعرفة أول واجب على المكلف، لأن جميع الواجبات لا تتحقق إلا بها، ولكن المعرفة لا يتوصل إليها إلا بالنظر، فيكون بذلك النظر واجبا أيضا، لأن المعرفة لا تتم إلا به، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

28- من رسالته إلى أصحابه بطرابلس الغرب ص 214.

29- راجع: رسالته إلى أصحابه بغريان ص 199.

30- راجع: المصدر نفسه ص 195.

31- المواقف، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة ج1 ص 165، طبعة أولى، 1997م دار الجيل، بيروت.

وإذا كان الأشعري يرى أن أول واجب هو المعرفة، فإن هناك من يرى غير ذلك، فمثلا يرى أبو إسحاق الإسفراييني: أن أول واجب هو أول النظر الموصل إلى المعرفة، ويرى القاضي الباقلاني: أن أول واجب هو النظر.

ولنوضح هذا بمثال: عندما نستدل على وجود الله نقول مثلا: العالم حادث، وكل حادث لابد له من محدث، هذا دليل ينتج: أن العالم لابد له من محدث. وهو مكون من مقدمتين: الأولى: العالم حادث. والثانية: كل حادث لابد له من محدث. فإن أول واجب هو المقدمة الأولى، وذلك ما يعبر عنه بأن أول واجب هو أول النظر.

ويرى إمام الحرمين أن أول واجب هو القصد إلى النظر، لأن النظر لا يأتي إلا بعد القصد إليه، ومعنى القصد إلى النظر: تفريغ القلب من الشواغل التي تعوق النظر. إلى غير ذلك من الآراء.

ويمكن التوفيق بين هذه الآراء فنفرق بين ما هو غاية وما هو وسيلة. فإذا اعتبرنا الغايات والمقاصد قلنا: إن أو ل واجب هو المعرفة، وإذا اعتبرنا الوسائل قلنا: إن أول واجب -كوسيلة قريبة- هو النظر، وإن أول واجب -كوسيلة بعيدة- هو القصد إلى النظر.

تبقى ملاحظة مهمة هي: أن معرفة الله تعالى يجب أن تفهم على أنها معرفة الله تعالى وصفاته وما إلى ذلك من أحكام الألوهية، وليس المقصود معرفة حقيقة الذات الإلهية، فإن الشرع قد نهى عن الخوض في ذلك الجانب، وقد بينا فيما سبق أن النهي ليس حجرا تعسفيا على العقل الإنساني، وإنما هو وضع للأمور في نصابها ببيان الحدود التي لا يستطيع العقل الإنساني أن يتعداها، فليراجع هذا في موضعه.

3. صفات الله تعالى

يرى الشيخ الأسمر أن صفات الله تعالى تكون بما قام الدليل على وجوبه لله تعالى، وقد سار في بيان الصفات الواجبة لله تعالى، على ما ذكره الأشاعرة وغيرهم في أن الصفات الواجبة لله تعالى والتي قام الدليل عليها من العقل والنقل هي عشرون صفة، وتنقسم إلى أربعة أقسام: نفسية، وسلبية، ومعان، ومعنوية، وقد بسط لنا الشيخ هذه الصفات مع بيان استحالة أضدادها في حقه تعالى، مستدلا على كل صفة بدليلين أحدهما عقلي والآخر نقلي، وذلك بقوله: « فمما يجب لمولانا جل وعز عشرون صفة،

ويستحيل في حقه تعالى أضدادها »[32].

4. الإسلام والإيمان

يرى الشيخ الأسمر أنه قد اختلف في الإيمان والإسلام، هل هما لفظان مترادفان؟أي على معنى واحد، أو اسمان مختلفان باختلاف المعاني، فمن العلماء من يرى أنهما شيء واحد، وحجته في ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: 35-36]، ومنهم من يرى أنهما شيئان مختلفان، وهو مع هذا الرأي، فهما عنده اسمان مختلفان باختلاف معنى كل منهما، وفي ذلك يقول: واعلموا أن الإيمان والإسلام شيئان، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14][33].

ويبين الشيخ أن الإسلام هو الاستسلام، والاستسلام هو الانقياد، والانقياد هو الامتثال لأوامر الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: 7]، وأما محل الإسلام فهو الصدر لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: 22]، وأما دواعيه: فالسؤال لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، وأهل الذكر هم أهل العلم، وأما شروطه فهي: كف الأذى لقوله ﷺ حينما سئل أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ قَالَ: « مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ »[34].

وقواعده خمس، وهي كما قال ﷺ: « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ »[35].

والإسلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم يتعلق بالأبدان، وقسم يتعلق بالأموال، وقسم متعلق بالزمان والمكان، فأما القسم الذي هو متعلق بالأبدان هو قول لا إله إلا الله، والصلاة، والصيام، والقسم الذي هو متعلق بالأموال هو الزكاة، والقسم الذي هو متعلق

32- راجع: رسالته إلى أصحابه بغريان ص 193.

33- راجع: المصدر نفسه ص195.

34- البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أي الإسلام أفضل، حديث رقم 10، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام حديث رقم 59.

35- البخاري في كتاب الإيمان، باب بني الإسلام على خمس، حديث رقم 7، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه حديث رقم20.

بالزمان والمكان هو الحج[36].

ويبين الشيخ الأسمر أن الإيمان بالله تعالى هو التصديق به لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: 17] أي بمصدق به، فهو إذن ليس بقول ولا فعل، وإنما هو اعتقاد بالقلب، وأما محله فهو: القلب، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: 22]، وأما دواعيه فهي النظر في الأشياء لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17]، وأما شروطه فهي: التقوى لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: 88]. ومنها أيضا: علم دون جهل، وإخلاص دون شك، واستواء الظاهر والباطن.

وأما حقيقته فهي: بذل الروح، لقوله ﷺ: « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[37]. وقواعده خمس هي: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه، فإن قال قائل ما الدليل على أن الإيمان على خمس؟فالجواب أن تقول له بني بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: 177]. وأيضا بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

وأما مراتبه فهي ثلاثة: الإسلام بقواعده المعروفة. الإيمان بقواعده المعروفة. الإحسان. وهذا تصديقا لقوله ﷺ في حديث جبريل حينما سأل النبي ﷺ مَا الْإِيمَانُ فقَالَ ﷺ: « الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، قَالَ مَا الْإِسْلَامُ قَالَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وتحج البيت إن استطعت، قَالَ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[38].

وأما أقسامه فهي سبعة يبينها الشيخ الأسمر في قوله: وأقسام الإيمان سبعة، وهي: إيمان بالله، وإيمان لله، وإيمان بالعبودية، وإيمان بالخصوصية، وإيمان بالقبضتين، وإيمان

36- راجع: رسالته إلى أصحابه بغريان ص192.

37- البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه حديث رقم 12، ومسلم كتاب الإيمان باب الدليل على أن من خصال الإيمان حديث رقم 64.

38- البخاري كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي حديث رقم 48، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان حديث رقم 10.

بالقدر، وإيمان بالناسخ والمنسوخ.

فالإيمان بالله أن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالموت والقبر وعذابه وضمّته والمساءلة فيه، ودخول منكر ونكير فيه، والصراط والميزان والعرض على الله، والحوض والشفاعة والجنة والنار، وأن الله يرى يوم القيامة، وأن أقواما من الموحدين يخرجون من النار بعد أن امتحنوا فيها، ويدخلون الجنة برحمة الله وشفاعة محمد ﷺ.

والإيمان لله: أن تعبدوا الله خالصا على حكم الكتاب والسنة، ولا تعملوا شيئا من أعمال الكفر.

والإيمان بالعبودية: أنك عبد لله ولو ملكت ملك سليمان عليه السلام، أو ملك ذي القرنين، لا تتكبر ولا تتجبر على معبودك.

والإيمان بالخصوصية: فحين خلق الله الخلق غمسهم في النور، فمنهم من غمسه فيه كله ولم يظهر منهم شيء، ومنهم من أخذ منه شيئاً، ومنهم من لم يأخذ منه شيئا، فإما الذين انغمسوا في النور ولم يظهر منهم شيء، فهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون. وأما الذين أخذوا من النور شيئا فهم أهل التخليط من المؤمنين الذين يفعلون الخير والشر، وأما الذين لم يأخذوا من النور شيئا فهم الكفار والمنافقون.

والإيمان بالقبضتين: فحين خلق الله آدم عليه السلام، قبض قبضة على كفه الأيمن، فاستخرج منها ذرية كالذر في بياض البيضة، وقال خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون ولا أبالي، ثم قبض قبضة على كفه الأيسر فاستخرج منها ذرية سوداء كالقار، وهو الزفت، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ولا أبالي.

والإيمان بالقدر: أن تؤمن بالقدر كله خيره وشره، حلوه ومرّه، وما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو جاهد أهل السموات والأرض أن يضروك بشيء ولم يكتبه الله لك لما قدروا.

والإيمان بالناسخ والمنسوخ: أن تعلم أن آية رحمة نسختها آية عذاب، وآية عذاب نسختها آية رحمة، وأن تؤمن بالكل[39].

39- راجع: من رسالته إلى أصحابه بغريان ص 189 - 190.

ثانيا: الالتزام بالتكاليف الشرعية

اقتفى الشيخ الأسمر آثار مشايخ الصوفية في الالتزام والمحافظة على التكاليف والحدود الشرعية، والاستقامة عليها في كل الأحوال، لأن أنفسهم ذاقت حلاوة العيش في ظل هذه التكاليف، حينما تعرفت على الله تعالى، وفي ذلك يقول: « وعليكم بالمحافظة على الصلوات الخمس، فإنها عماد الدين، وهي من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، ومن المحافظة عليها أن تصلي أول الوقت، وفي الجماعة ما أمكن، ورأس المحافظة حضور القلب فيها، وقبيح بالمصلي أن يكون جسده بين يدي ربه وقلبه متردد في أودية الدنيا »(40).

ويقول: « واعلموا رحمكم الله أن الصلاة لا تصح إلا بمعرفة واجباتها ومبطلاتها وسننها، ولا تكمل إلا بمعرفة مندوباتها ومكروهاتها »(41). ويقول: « أوصيك أيها المريد ... بالمحافظة على فرائض الله، وبالمجانبة لمحارم الله، وبالمسارعة إلى الخيرات ابتغاء وجه الله، وبالمحافظة على الصلوات في جماعة أول الوقت، وبالخشوع وحضور القلب في جميع الصلوات، فإن المصلي مع الغفلة وشغل القلب بحديث الدنيا لا يعد عند الله من المصلين، وبإخراج الزكاة إن كان عندك مال يجب فيه إخراجها وأنت طيب القلب فرح مسرور بذلك، وضعها حيث وضعها الله في الفقراء والمساكين، ولا تطلب على ذلك ثناء منهم ولا من غيرهم، ولا تعمل إلا لوجه الله ... فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما هو خالص لوجهه »(42).

ويقول: « واعلموا أن للصوم فوائد جليلة منها إجابة الدعاء، ونزول البركة، وللصائم فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، وعندي أن فرحته عند الفطر إنما هي بلوغه إلى الحالة التي يتيقن بها إجابة الدعاء، ويرجو حسن الجزاء »(43). ويقول: « عليكم بتجريد النية والقصد لحج بيت الله الحرام وقضاء مناسككم، وتعظيم حرماته وشعائره ... وعليكم بالإكثار من الطواف بالبيت العتيق، فإن الطائف به خائض في

40- من رسالته إلى أصحابه بتونس.

41- من رسالته إلى أصحابه بالزاوية الغربية ص 177.

42- من رسالته إلى محمد الشاذلي ص 134.

43- من رسالته إلى أصحابه بسوس ص 285.

الرحمة ... وعليكم بإحلال الحلال والأدب فيه »[44].

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن الشيخ الأسمر قد ربط التصوف بالالتزام بالتكاليف الشرعية، من حيث إن العلاقة بين الشريعة والحقيقة علاقة وطيدة، فكل شريعة لا تؤدي بصاحبها إلى حقيقة العبودية الخالصة لله تعالى فغير مقبولة، ومن ثم ركّز في وصاياه على توجيه المريد نحو أداء التكاليف الشرعية حق الأداء، فإن القيام بها على أكمل وجه، ينير قلب العبد، ويزيده معرفة بالله تعالى، وكلما ازداد معرفة بالله ازداد عبادة له، ذلك لأن العبادة هي الهدف الأسمى من خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]، فمن وفى بحق العبودية، وفاه الله تعالى عهد الربوبية في أن يحفظه عن الآفات والمحرمات وغير ذلك.

المبحث الثالث: معالم التصوف عند الشيخ الأسمر

الممعن النظر في تصوف الشيخ عبد السلام الأسمر يجد أن له معالم كثيرة من أبرزها:

1. التربية والمجاهدات النفسية.
2. الذكر.
3. الوجد.

أولا: التربية

احتلت التربية مكانة مهمة عند الصوفية، لأنها عملية تتكامل فيها المعارف والسلوك، وطريق لخلق جيل قوي ذي شخصية قوية، يؤثر في العالم الإسلامي، ولما كانت عملية التربية لا تتم إلا بمرب أو معلم أو شيخ اتخذها الصوفي أساسا لبناء معارفه، فلابد للصوفي من تربية على يد شيخ، كي يسلك به الطريق الصحيح، ومن ثم فإن علم التصوف « لا يؤتي ثماره المنشودة، وأذواقه المرغوبة، ولا ينهض بموضوعه في علاج النفس والقلب، وإثراء الروح، إلا بانتهاج أسلوب التربية الصحيح »[45].

فالمسلم الصوفي يحتاج إلى التربية الصحيحة لأنها تقوي فيه الجانب الروحي الذي به يقوى على كبح جماح شهواته وملذاته، فيفسح للفكر أن ينطلق عبر مجالاته

44- من رسالته إلى أصحابه بتونس ص 269، 270.

45- قواعد السلوك د. عبد الله الشاذلي ج1 ص 29.

التي رسمها له الله تعالى[46].

ويـرى الشيخ الأسمر -شأنه شأن مشايخ الصوفية- أنه لكي تتكامل عملية التربية لابـد لهـا من شيخ يقوم بالتربية، ومريد يتلقاها، وعهد فيما بين الشيخ والمريد، وتفصيل ذلك على الوجه التالي:

1. الشيخ المربي

تسعى التربية الصوفية إلى إعداد المريد أو السالك إعدادا صحيحا لا يتم إلا على يـد شـيخ مربٍ، إذ المربي هو الذي يصنع الفرد والمجتمع، وذلك تأسيا واقتداء برسول الله ﷺ والتـزاما بمنهج حياته، كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21].

ووجـه الحاجة إلى الشيخ المربي، أن المريد في طريق سيره إلى الله تعالى، ينتابه صـراع عنـيف بـين نفـسه الأمـارة بالسوء، وقلبه الواعي إلى الخير، وكذلك الجو النفسي الـذي يحيط به، ولا يستطيع له دفعا[47]. ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى شيخ يثبته في طريق السير، ويهديه سواء السبيل، يقول الشيخ الأسمر: « إن شيخ التربية واجب متأكد في حق كل فقير ولو بلغ ما بلغ »[48].

ثـم يـنقل عـن بعض مشايخ الصوفية ما ورد في هذا الشأن فيقول: وقد ذكر إمام الـصوفية أبـو القاسـم الجنـيد أنـه لابد للفقير من الأخذ عن شيخ فارغ من تأديب نفسه، وكـذلك الـشيخ أبـو حامـد الغزالـي قـال: إن المـريد إذا لم يكـن لـه شيخ لا يجيء منه كالشجرة التي تنبت بنفسها لا يتم نتاجها[49].

ويـؤكد الـشيخ الأسمـر علـى احتـياج المريد إلى صحبة الشيخ حتى يستطيع أن يـتعلم إذ الـتعلم لابد له من معلم، فيقول: « يحتاج المريد إلى صحبة المشايخ، والتأدب

46- راجع: المذاهب الصوفية ومدارسها، عبد الحكيم عبد الغني قاسم، ص 121 ط 1989 مدبولي بالقاهرة.

47- راجع: التصوف في الإسلام، عمر فروخ ص 54.

48- الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية، عبد السلام الأسمر، ص 5 ط1964م دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

49- راجع: المصدر نفسه، ص 5 وراجع ما قاله الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين ج2 ص 276.

بآدابهم، واتباع أوامرهم ونواهيهم »[50].

وينقل الشيخ الأسمر عن الشيخ أحمد زروق قائلا: « ولابد في طريق المعرفة من شيخ ناصح، أو أخ صالح، فإن المجاهدات ثلاثة: مجاهدة التقوى، والشيخ فيها شرط كمال، ومجاهدة الاستقامة، والشيخ فيها شرط صحة، ومجاهدة الكشف، والشيخ فيها شرط وجوب، ولكل مقام مقال، ولكل عمل رجال »[51].

ويبين الشيخ الأسمر أن درجة التلقي أو الأخذ عن الشيخ تختلف من شخص إلى آخر، بحسب ما أودعه الله تعالى في الإنسان من الذكاء والفهم، فيقول: « ويختلف ما ذكرناه من المجاهدة والرياضة باختلاف الأشخاص، فرب شخص زكي الفطرة، كريم السجية، سهل المقادة، لا يحتاج في ذلك إلى كثير معاناة، ولا تعب، ورب شخص يكون حاله على عكس هذا، فلا جرم يحتاج إلى زيادة تعب وقوة ممارسة، وشدة مجاهدة لرداءة فطرته، ونقصان غريزته، وبين هذين درجات لا تحصى »[52].

ويرى الشيخ الأسمر –اقتداء بالمدرسة الشاذلية– أنه لابد أن تتوافر في الشيخ القائم بالتربية الذي يلقي إليه المريد نفسه خمسة شروط هي:

1. علم صحيح، لأنه دليل ولابد للدليل من علم تصح به دلالته.
2. وذوق صريح، إذ بالذوق تتحقق عباراته، وتفهم إشاراته، فبعلمه يقتدى، وبذوقه يهتدى، فبعلمه تستقيم الظواهر في الأقوال والأفعال، وبذوقه تتحقق البواطن في الأحوال، فبعلمه يختبر ظواهر المريدين، وبذوقه تختبر بواطن السالكين.
3. وهمة عالية، عن الأكوان لتنتقل همم المريدين إلى الله تعالى، إن همة المريد من همة شيخه.
4. وحالة مرضية، مع الله تعالى، ومع الخلق، مع الله تعالى باستقامة أحواله، ومع الخلق بمكارم الأخلاق.
5. وبصيرة نافذة، لينظر بها بنور الله تعالى في أحوال تابعيه الباطنة، فمن لا بصيرة له ينظر بها بنور الله تعالى، فتابعوه معه على غرر، لعدم اطلاعه على بواطنهم.

وبعد أن ذكر الشيخ هذه الشروط أعقبها بقوله: « ولا تصح المشيخة الكاملة إلا

50- من رسالته إلى أصحابه بسوس ص 295.

51- المصدر نفسه ص 314.

52- المصدر نفسه ص294.

لمن كان على قدم رسول الله ﷺ، وهو من كملت أحواله، واستقامت أقواله وأفعاله، وكان متخلقا بالقرآن العظيم، متحليا بمعاني أسماء الله الحسنى، وكان ذا علم راسخ، وعقل سليم، ونفس طاهرة، فأمحى هواه، وانشرح صدره، وتنور قلبه بأنوار المعرفة، فسلمت فطنته وفطرته، وتنورت بصيرته، وترجح رأيه »(53).

وبعد أن ذكر الشيخ الأسمر شروط الشيخ، ذكر أوصاف من لا تصح مشيخته للحذر منه –وقد استمدها من شيخه ابن عطاء الله السكندري– وهي على الوجه التالي:

الأول: الجهل بالدين، لأن الجاهل بالدين لا يصح الاقتداء به أصلا، فهو لا يهدي نفسه، فكيف يهدي غيره؟!.

والثاني: إسقاط حرمة المسلمين، لأن سقوط حرمتهم عنده يقتضي عدم الاهتمام بهم، والنصح لهم جريا على طريقته ﷺ.

والثالث: الدخول فيما لا يعني، وذلك من الفضول الداعي إلى شر عظيم ونقص كبير، ومن دخل فيما لا يعنيه ترك ما يعنيه.

والرابع: اتباع الهوى في كل شيء، لأنه مضل عن سبيل الله تعالى، والشيخ وظيفته أن يهدي إلى سبيل الله تعالى، ومن ضل عنها لا يهدي غيره، والشيخ يأمر بمخالفة الهوى في كل شيء، وكيف يأمر بمخالفته وهو متبع له.

والخامس: سوء الخلق من غير مبالاة، فمن ساء خلقه لا تصح مشيخته، لأن الشيخ يحتاج إلى خلق عظيم، وقلب سليم وحال كريم(54).

ويرى الشيخ الأسمر أن الانتفاع بالتربية على يد الشيخ يوجد في كل زمان، إذا ما تحققت شروط الشيخ، ولا يصح الاحتجاج بأنه لا يوجد شيخ، ومن ثم فلا توجد تربية، وفي ذلك يقول: « فمن حقق نسبته إلى شيخ معين من أهل عصره، وصدق في محبته، وفي محبة من انتسب إليه، انتفع منه، إذ لا يحل لمسلم أن يقول: إن التربية انقطعت ... ففي كل عصر سادة وقادة »(55).

وهكذا يتضح لنا أن الشيخ المربي أمر ضروري لا مناص منه لعملية التربية، فهو طوق النجاة بالنسبة للغريق، والقاضي المحايد العدل بالنسبة للمتخاصم، والمستيقظ

53- راجع: رسالته إلى أصحابه بسوس ص 314، 315.

54- راجع: المصدر نفسه ص 317.

55- المصدر نفسه ص 322.

الذي يمكنه إيقاظ غيره، وفي غيابه فإن النفس هي التي تتولى تدبير شخصية العبد حيث تحرص على تحصيل حظوظها العاجلة، مما يجعلها تتخبط في الطريق.

إن الشيخ المربي يلعب دور المرآة الصافية التي يرصد فيها المريد اتجاه تطوره الروحي من خلال نظرته إلى شيخه، فإذا كان للمريد استعداد خاص للولاية والخصوصية، فإن نظرة من شيخه تحيي روحه، وتفجر فيه محبة الله ومحبة رسوله ﷺ يسافر معها قلبه إلى آفاق جديدة لا محدودة.

2. المريد

المريد على موجب الاشتقاق هو من له إرادة، والإرادة هي: ترك ما عليه العادة، وعادة الناس-في الغالب- التعريج في أوطان الغفلة، والركونُ إلى اتباع الشهوة، والإخلادُ إلى ما دعت إليه المنية.

والمريد عند الصوفية من لا إرادة له، فمن لم يتجرد عن إرادته، لا يكون مريدا، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريدا[56]. فالمريد يسمع أمر ربه عز وجل فيعمل بما في الكتاب والسنة، ويصم عما سوى ذلك، ويبصر بنور الله عز وجل فلا يرى إلا فعله فيه، وفي غيره من سائر الخلائق، ويعمى عن غيره فلا يرى فاعلا على الحقيقة غيره عز وجل، قال ﷺ: « حبك الشيء يعمي ويصم »[57].

والمريد هو: سالك الطريق الذي يسير فيه حسب توجيهات وإرشادات شيخه، فيسلك طريقه كما يرسمه له شيخه، حتى يصل إلى غايته.

ويرى الشيخ الأسمر أنه حتى يتسنى للمريد اجتياز مراحل الطريق بسهولة ويسر، كي يصل إلى مراتب الكشف، فلابد أن يتعلّم الأدب ويتحلّى به، لأن الأدب هو العلم كله، وتتمثل الآداب في: أدب المريد مع شيخه، وأدب المريد مع إخوانه وسائر الناس.

أدب المريد مع شيخه

يرى الأسمر تبعا لمنهج المدرسة الشاذلية أن أدب المريد مع شيخه يتمثل في خمسة قواعد هي:

56- الرسالة القشيرية، أبو القاسم القشيري، تحقيق د. عبد الحليم محمود، ج2 ص 343 ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

57- أخرجه أبو داود في سننه ج4 ص 334 عن أبي الدرداء ﷺ.

الأولى: اتباع أوامر شيخه وإن ظهر له خلافه، وإنما لزم المريد اتباع أمر شيخه لما فيه من المصالح العامة، ولو لم يكن فيه إلا خروجه من مراده لما في ذلك من الخروج عن الهوى.
الثانية: اجتناب النهي، وإن ظهر للتلميذ خلاف ما قصده الشيخ، فوجب ترك نظره لنظر شيخه فيما أمره به ونهاه عنه، لأنه أعلم بالمصالح والمضار، فيمتثل أمره، ويجتنب نهيه، وإن كان في ذلك حتف أنفه.
الثالثة: حفظ حرمته حاضرا أو غائبا، حيا أو ميتا، فمن حفظ حرمة شيخه حفظ الله حرمته، ومن أهانها أهانه الله تعالى.
الرابعة: القيام بحقوقه بقدر الإمكان بلا تقصير.
الخامسة: عزل عقله وعلمه ورئاسته، إلا ما يوافق ذلك من شيخه[58].

لكن هذه الآداب قد ينتقدها بعض الناس، بحجة أنها تعني الطاعة العمياء للشيخ، والمحو الكامل لشخصية المريد، والقضاء التام على إرادته وحريته واختياره، ويجاب على ذلك: بأنه لا ضير في ذلك مادام الشيخ المربي تتوافر فيه الصفات الحسنة، من العلم الصحيح والذوق الصريح، والهمة العالية، والحالة المرضية، والبصيرة النافذة، فإن طاعة من هذا وصفه تكون طاعة لله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

أدب المريد مع إخوانه

ذكر الشيخ الأسمر أن أدب المريد مع إخوانه هي نفس آدابه مع شيخه، ويستطرد قائلا: ولا يقال إن بعض الآداب اللازمة للمريد مع شيخه قد لا تكون مع الإخوان لتفاوت الحقوق، ولكن الشيخ الأسمر أورد حكمها لتقارب الحقوق، ورب أخ بمنزلة الشيخ فيعطي حقوق الأدب، ثم زاد على هذه الشروط، فيما يخص الإخوان شرطين هما: الإنصاف، لأن به تقع المساعدة والموافقة، والنصيحة، لأن بها يحصل الانقياد والقبول[59].

بالإضافة إلى هاتين النصيحتين توجد نصائح أخرى مثل: أن يلزم المريد الصمت عن الكلام الذي لا يفيد، والصبر عن المعصية، والرضا بما قدّره الله تعالى، والخدمة

58- راجع: من رسالته إلى أصحابه بسوس ص 319، 320.
59- راجع: المصدر نفسه ص 321.

بالنية، والجد والابتهال، وقراءة أحزاب الشاذلي، وقراءة الفاتحة كل يوم للشيخ وإخوانه، وجملة المشايخ [60].

وبالجملة يرى الشيخ الأسمر أنه ينبغي على المريد أن لا يتهاون بشيء من الآداب ولا يستحقرها، لأن التهاون والاستحقار أقبح أنواع سوء الأدب.

وبعد أن ذكر الشيخ الأسمر آداب المريد مع شيخه ومع إخوانه، أكد أنه ينبغي للمريد أن يتجنب أموراً عدة، منها: أن يوطن خاطره على شيء من الاعتراض على الله تعالى، وتعاطي التدبير معه، والتبرم بأحكامه المؤلمة في نفسه أو غيره، وأن يسرح لسانه بالشكوى إلى الخلق، والعيب لما يوافق هواه، أو نقص في نظره مما يراه من الحق، وأن يعلق قلبه بشيء من الاعتراض على المشايخ والأولياء، وأن يترك تعظيمهم، وأن لا يقبل إشارتهم فيما يشيرون به عليه، وكذلك تصدره للتعليم والهداية، وتصديه للأمر والولاية، ومحبته للاستتباع والرئاسة، وتربيته للجاه، ونزوله عن مقتضيات الحقيقة إلى رخص الشريعة، وأن يميل إلى أهل الدنيا، وأن يتقرب إليهم أو يصاحبهم[61].

والممعن النظر في هذه الأمور يجد مدى تأثر الشيخ الأسمر فيها بشيخه ابن عطاء الله السكندري، والمدرسة الشاذلية.

3. العهد

العهد من الأمور اللازمة لعملية التربية حسبما يرى الشيخ الأسمر، لأنه إذا كان الطريق إلى التربية الصوفية يتشكل من شيخ ومريد، فإن الذي يربط بينهما هو العهد، فهو أوثق رباط بين رجلين تحابا في الله، وتعاهدا على طاعته[62]. وذلك مصداقا لقوله ﷺ: « ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه »[63].

يقول الشيخ الأسمر: « أخذ العهد له أصل في الشرع العزيز، لأن الله تعالى أخذه من الأرواح، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

60- راجع: الأنوار السنية ص 12.

61- راجع: رسالته إلى أصحابه بسوس ص 297 - 299.

62- راجع: الطرق الصوفية في مصر، د. عامر النجار ص 28 ط دار المعارف بمصر.

63- البخاري في كتاب الآذان، باب من جلس في المسجد، حديث رقم 620، ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم 1712.

قال هلموا أعهدكم، وإليه الإشارة»[64].

وهكذا تسعى التربية الصوفية لإعداد المريد أو السالك إعدادا صحيحا، لا يتم إلا عن طريق معرفته بربه وخالقه، وتلقيه العلم عن يد شيخ تتوافر فيه الصفات الحسنة، وعهد يربط بين الشيخ والمريد برباط الطاعة والانقياد لله ورسوله، ولهذا وضعوا للمريد مقامات مختلفة، لا يرتقي من مقام إلى آخر إلا إذا بلغ درجة الكمال في مقامه، ولا يتم الإعداد لهذه المقامات إلا إذا سلك المريد طريق الزهد في الدنيا، ولا تتم مرحلة الزهد إلا بمجاهدة النفس، عن طريق العزلة عن كل صفة مذمومة وكل خلق يتنافى مع ما اتفقت عليه تعاليم الإسلام.

ثانيا: الذكر

أ. فضل الذكر

يعد ذكر الله تعالى من أعظم ما يشغل الإنسان به قلبه وعقله، يقول الإمام الغزالي: «فليس بعد تلاوة كتاب الله عز وجل عبادة تؤدى باللسان، أفضل من ذكر الله تعالى»[65]. ويرى الصوفية أن ذكر الله تعالى هو: قوام التصوف، ومنشور الولاية، وعمدة الطريق الصوفي.

وفي هذا يقول القشيري هو: ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر[66]. وقد دل عليه من القرآن ومن السنة النبوية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: 41].

وقال ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قَالُوا بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ»[67].

فالذكر صقال القلوب، ومفتاح باب النفحات، وسبيل توجه التجليات على القلوب، وبه يحصل التخلق، فالمريد لا يصيبه غم أو هم أو حزن إلا بسبب غفلته عن ذكر الله، ولو اشتغل بذكر الله لدام فرحه وقرت عينه، إذ الذكر مفتاح السرور والفرح،

64- من رسالته إلى أصحابه بسوس ص 324..

65- إحياء علوم الدين، ج1 ص 304.

66- راجع: الرسالة القشيرية ج1 ص 101.

67- الترمذي في سننه، كتاب الدعوات حديث رقم 3299.

كما أن الغفلة مفتاح الحزن والكدر.

ويرى الشيخ الأسمر أن أعظم ما يذكر الإنسان به ربه، هو قراءة القرآن، فالقرآن هو العلم الجامع لكل العلوم، لذا يقول: «واقرأ ما تيسر من القرآن في كل يوم أو كل ليلة بترتيل وتدبر وحضور قلب، ويكون على التدرج، من أوله حتى تختمه، ولو في الشهر أو في الأربعين مرة، والسر في الحضور والتدبر لا في الإكثار من القراءة، ودم على ذكر الله بالقلب واللسان، ولا تزال قائلا: لا إله إلا الله، ومستحضرا لمعناها بقلبك ... وإياك والغفلة عن ذكر مولاك، فإن الغافل عن ذكر ربه ميت القلب»[68].

فهنا يركز الشيخ على أن يبدأ الإنسان ذكر الله تعالى، بقراءة القرآن الكريم كلام الله تعالى، وأن يتدبر معانيه، وهذا يكسب الإنسان استحضار عظمة الله تعالى، كما يكسبه حياة هادئة مطمئنة، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: 28]. وكما قال ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»[69].

ويبين الشيخ الأسمر أنه يجب على الإنسان أن يكون دائما أبدا على صلة بالله تعالى، وهذه الصلة لن تتحقق إلا بالمداومة على تلاوة القرآن، والمواظبة على ذكر الله تعالى، فهما سبيلا الإنسان في فتح كل طريق مغلق، وتيسير كل أمر عسير، وفي ذلك يقول: «وداوم على تلاوة كتاب الله، وثابر على ذكر الله ... وعليك بالذكر فإنه ميدان الفتح»[70].

كما يبين الشيخ الأسمر أن الإكثار من ذكر الله تعالى، ينير للإنسان قلبه، ويشرح له صدره، ويمحو ذنبه، وعلى رأس ذلك (قول لا إله إلا الله) يشير إلى ذلك قائلا: «وعليك بالإكثار من الذكر فإنه ينوّر القلب، ويشرح الصدر، ويمحق الذنب، وخصوصا لا إله إلا الله، أكثر منها جدا»[71].

ويؤكد على الذكر قائلا: «وعليك بالذكر فإنه المفتاح، وسبيل النجاح، ومصباح الأرواح، وسوق الرباح، واجعل لك وردا من كل ذكر، واجعل وردك اللازم الدائم قول: لا

68- من رسالته إلى عبد الرحمن الغزاني، ص 127.

69- البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله حديث رقم 5928.

70- من رسالته إلى سعيد الغدامسي ص 130 ن 131.

71- من رسالته إلى محمد الشاذلي ص 134، 135.

إلـه إلا الله، فإنهـا روح جمـيع الأذكـار »[72]. فكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) هي خير ما يقـوله الإنـسان، وهـنا يذكّـر الـشيخ الأسمر بقوله ﷺ: « وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ »[73].

وهي سبيل الفوز بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، لقوله ﷺ: « أسعد الناس بشفاعتي يـوم القـيامة، مـن قـال لا إله إلا الله خالصا مخلصا من قلبه أو نفسه »[74]. وكذلك فإن كلمـة التوحـيد إذا ما قالها العبد خالصا مخلصا من قلبه يبتغي بها وجه الله تعالى، حرم الله علـيه الـنار، وذلك لقوله ﷺ: « فإن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله »[75]. إلى غير ذلك من الأحاديث التي ذكرت في هذا الشأن.

وكـذلك يـبين الـشيخ الأسمـر أنـه مـن باب ذكر الله تعالى، أن يكثر الإنسان من الحـول والقـوة بـالله على الدوام، فيقول: « مهما وجدت في صدرك حرجا، أو في نفسك ضـيقا، أو في قلـبك استيحاشـا، فأكثـر مـن قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فإنها الدواء النافع لكل داء »[76].

ويبين الشيخ الأسمر أنه لابد من المواظبة على الأذكار في كل ما يقوم به الإنسان علـى مـدار حـياته في الـصباح والمـساء، في السفر والترحال، في الركوب والنزول، في السراء والضراء، في العسر وفي اليسر، في العطاء وفي المنع، في الشدة والرخاء، وهكذا ... فيقول: « وواظبوا على أذكار الصباح والمساء، فإنها حصن من الشيطان، وحرز من الشر، وحافظوا على أذكار السفر، وما يقال عند الركوب والنزول، ودخول البلد، إلى غير ذلك من الأذكار »[77].

ويـبين الـشيخ أنـه يجب على الإنسان أن يذكر الله تعالى سواء كان بفرده، أو مع جماعـة، فالذكـر كمـا يكـون فرادى يكون جماعات، وفي ذلك يقول: « وعليكم بالذكر

72- من رسالته إلى راشد بن يحي المحجوبي ص 146.
73- مالك في الموطأ، كتاب النداء للصلاة، باب ما جاء في الدعاء، حديث رقم 449.
74- البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، حديث رقم 97.
75- البخاري في كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، حديث رقم 407.
76- من رسالته إلى راشد بن يحي المحجوبي ص 147.
77- من رسالته إلى أصحابه بتونس ص 256، 257.

بالهيئة الجماعية وغيرها »[78]. وكان رائد الشيخ الأسمر في ذلك القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ [سبأ: 46].

وفي معنى ذلك يقول الإمام الرازي: « تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله »[79].

ب. شروط الذكر

يبين الشيخ الأسمر أن للذكر شروطا وآدابا يجب أن يتحلى بها الذاكر لله تعالى، وهي: قبل الذكر، وأثناء الذكر، وبعد الفراغ من الذكر. أما ما قبل الذكر: فيشترط التوبة، ومن شروطها: الندم على ما فات، وجزم النية على أن لا يعود إلى الذنب، وترك المعصية، ورد المظالم إلى أهلها[80].

وكذلك يشترط فيه: طرد النفس، وتنظيف القلب من الغش والكبر والمنكر، وما شابه ذلك، من الطهارة والوضوء، وعد ملء المعدة بالطعام والشراب، حتى لا يكون ذلك مدخلا من مداخل الشيطان.

أما أثناء الذكر فيشترط: الإخلاص، بأن لا يذكر الإنسان ربه رياء ولا سمعة، وإنما يذكر الله محبة وتعظيما وإجلالا. أما بعد الفراغ من الذكر فيشترط: الدوام على حضور الذكر في القلب، وان يسكت منتظرا للوارد الذي يحصل بعد الفراغ من الذكر، وتسمى عند أهل الطريقة (النومة)[81].

ج. أهمية الذكر عند الشيخ الأسمر

اهتم الشيخ الأسمر بالذكر اهتماما بالغا، يتضح ذلك جليا من خلال الوصايا والأوراد والأحزاب التي لقنها لمريديه، وهي: الحزب الكبير، حزب الطمس، حزب الخوف، حزب الفلاح، وقد ذكر الشيخ هذه الأحزاب في وصيته الكبرى، وقال: « عليكم

78- من رسالته إلى أصحابه بالزاوية الغربية ص 128.

79- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ج 12 ص 435.

80- راجع: الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر ص 5 ط أولى 1958م المكتبة الثقافية بيروت لبنان، وكذا القطب الغوث سيدي عبد السلام الأسمر في سطور من نور، أحمد حامد الشريف ص 29، 30 ط دار الحسين الإسلامية بالقاهرة.

81- راجع: المصدر نفسه ص 32، وكذا تنقيح روضة الأزهار، كريم الدين البرموني ص 195، 196 ط المطبعة اليوسفية بالقاهرة، ومكتبة النجاح بطرابلس بليبيا.

بحفظ هذه الأحزاب وتلاوتها على الدوام إن قدرتم ... والصواب أن تقرءوها جماعة في كل يوم بعد صلاة العصر استحبابا، وقد جرى الأمر والفعل بذلك على أيدي المتصوفة وصالح الأمة كالشاذلي وتلامذته وغيرهم ... ولا تلحنوا فيها ولا تعطوها لغير أهلها»[82].

وتشتمل هذه الأحزاب على أدعية وتسبيح وحمد وتهليل لله تعالى، فالحزب الكبير يبدأ بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]، وينتهي بالدعاء لله: أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يعافينا ثم الصلاة على سيدنا محمد ﷺ.

وحزب الطمس يبدأ بالبسملة، ثم ذكر بعض أسماء الله الحسنى مثل يا قدوس يا ودود، وينتهي بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: 180-182].

وحزب الخوف يبدأ بالبسملة، وذكر لفظ الجلالة (الله) وبعض أسماء الله الحسنى مثل يا حفيظ يا علي يا عليم، وينتهي بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وحزب الفلاح يبدأ بالبسملة والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ثم بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم وذكر اسم الجلالة (الله) وينتهي بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 201][83].

ويعتبر الشيخ الأسمر أن هذه الأحزاب تدريب للمريدين على الطاعة وامتثال الأمر، وترويض لنفوسهم على اجتياز عقبات الطريق، كما أن الأوراد هي أوتاد راسية يبني المؤمن عليها خيمة الذكر في أرجاء وقته وعامة نشاطه وسُوَيْدَاءِ قلبه، كما تعتبر الأوراد هي الطريق إلى الله لا يستغني عنها مبتدئ ولا يزهد فيها واصل.

ثالثا: الوجد

اختلف العلماء في تعريف الوجد، فمنهم من قال: هو سر الله تعالى عند

82- الوصية الكبرى، الشيخ عبد السلام الأسمر ص97، وكذا تنقيح روضة الأزهار، كريم الدين البرموني ص211.
83- راجع: الوصية الكبرى، الشيخ عبد السلام الأسمر ص 92-97، وكذا تنقيح روضة الأزهار ص 212-222.

المؤمنين الموقنين، وهو مصادفة القلوب لصفاء ذكر كان عنه مفقودا. ومنهم من قال: مكاشفات من الحق، ألا ترى أحدهم يكون ساكنا فيتحرك، ويظهر منه الزفير والشهيق، وقد يكون من هو أقوى منه ساكنا في وجد لا يظهر منه شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: 2]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: 35]. ومنهم من قال: الوجد أول درجات الخصوص، وهو ميراث التصديق بالغيب، فلما ذاقوه وسطع في قلوبهم نوره، زال عنهم كل شك وريبة(84). ومنهم من قال: الوجد هو كل ما صادف القلب من غم أو فرح فهو وجد، وهو مكاشفات من الحق(85).

والذي يحجب عن الوجد هو: رؤية آثار النفس، والتعلق بالعلائق والأسباب، لأن النفس محجوبة بأسبابها، فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر، وصحا القلب، ورق وصفا، ونجعت فيه الموعظة ... فذلك هو الوجد، لأنه وجد ما كان عنده عدما معدوما(86). لكن هل من سند للتعريفات السابقة للوجد، في آيات القرآن الكريم؟ الممعن النظر في هذه التعريفات، يجد أن لها سندا من القرآن الكريم،، ذلك أن عددا من الآيات صوّرت حالة الوجد، وبيّنت آثاره السلوكية التي قد تترتب عليه.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: 31]، فهذه الآية تتحدّث عن الإعجاب الذي سيطر على النسوة، وعن الغيبة التي حصلت لهم عن أنفسهن، عندما شاهدن جمال يوسف، وبيّنت سيطرة هذه الحال والوجد بهن حتى إنهن قطّعن أيديهن، وهن لا يشعرن. وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: 84]. فهذه الآية تحدّثت عن فرط المحبة التي ملأت قلب يعقوب، هذه المحبة التي أنسته السؤال عن ابنه الثاني ساعة أن أخبروه بفقده، فلم يتأسف ولم يتحزن عليه، لسيطرة محبة يوسف على قلبه، وغيبته

84- راجع: اللمع، أبو نصر السراج الطوسي ص375 -377 تحقيق د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور ط1960 دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

85- راجع: المعجم الصوفي، د. عبد المنعم الحفني ص 256، ط أولى 1997م دار الرشاد بالقاهرة، وكذا: الفرق بين الفرق، الكلاباذي ص 134، 135، وكذا دراسات في التصوف الإسلامي، د. محمد جلال شرف ص 34، ط 1980 دار النهضة العربية بيروت.

86- راجع: اللمع للطوسي ص 377.

فـــيها[87]. وقـــوله تعـــالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهـف: 18]، فهـذه الآيـة صـورت الـرعب الـذي يحـصل في الـنفس للرائي لو تمت مشاهدته لأهل الكهف، وبينت إشارة السلوكية القوية في حركة الهروب والفرار[88].

الوجد عند الشيخ الأسمر

يـرى الشيخ الأسمر أن الوجد حالة تعتري الإنسان من كثرة ذكر الله تعالى، وفي ذلـك يقول: «ولا تزالون تذكرون حتى تظهر فيها الخمرة وهي السكر، والسكر هو الغيبة عمـا سـوى الله تعالى، وعلامة ذلك بينة لا تخفى على أحد إلا على أعمى البصيرة ... ثم بعد ظهور خمرتها اضربوا البنادير وقولي كلامي، وتأملوا معناه»[89].

وقـال: «ولا تضربوها إلا بعد أن تظهر الخمرة ولا تضربوها إلا وأنتم طاهرون وإيـاكم ثـم إياكم أن تضربوا البنادير لأجل طلب الدنيا، فان ذلك يضركم مع الله مضرة شديدة، ولا أرضى ذلك ولا من يفعله، ومن خالف فلا يلوم إلا نفسه»[90].

فيرى الشيخ الأسمر أنه ينظر إلى صاحب الوجد بنظرتين:

النظـرة الأولى: أنـه في حالـة اسـتحواذ للنـشوة، والفـرح، والسرور عليه، وأن علاج هذه الحالة والتعامل معها، يتم بتعبير حركي وقولي يتم من خلاله استفراغا لحالة الوجدانية.

النظرة الثانية: أنه غفل عما سوى الله تعالى من الموجودات الخارجية.

لكـن هـل تقـر الـشريعة الإسـلامية مـا ذكـره الـشيخ، من ضرب الدف في حالة الـسرور؟وما العلاقـة بـين هذا الضرب وبين الانفعالات النفسية ؟وهل تسلم السنة بتنبيه الغافل عن السوى؟ والجواب على ذلك: أن ضرب الدف في حالة السرور أصله الحديث الذي روته السيدة عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الْأَنْـصَارِ تُغَنِّيَانِ بِمَـا تَقَاوَلَـتْ الْأَنْـصَارُ يَـوْمَ بُعَـاثَ قَالَـتْ وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمَـزَامِيرُ الـشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا

87- راجع: مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ج3 ص 215، ط دار الكتاب العربي بيروت، وكذا عبد السلام الأسمر، آراؤه وأفكاره في ميزان الشريعة الإسلامية، محمد عز الدين الغرياني ص19 ط مطابع الجماهيرية بسبها.

88- راجع: عبد السلام الأسمر، آراؤه وأفكاره، ص19.

89- تنقيح روضة الأزهار ص200.

90- المصدر نفسه ص199.

بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا »[91]. وفى رواية أخرى له: وفيه جاريتان تلعبان بدف[92]، وفى رواية أخرى: تغنيان، وتضربان بالدف[93].

وهذا الحديث درسه الفقهاء فتوسعوا في لفظ عيد الوارد فيه فأدخلوا فيه مناسبات الأعراس، ومناسبات الختان بجامع الفرح في كل وأجازوا فيها بالتالي ضرب الدفوف وتوسع فيه فقهاء الصوفية فأدخلوا فيه السرور بنعم الله الواردة على القلوب كما قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: 58].

وهكذا نرى أن الحديث السابق يستطيع كل واحد أن يستنبط منه مراده، طالما أن ذلك في إطار الشرع، فيقرؤه رجل الفقه فيستنبط منه جواز ضرب الدف في حالة السرور، ويقرؤه رجل الفكر فيأخذ منه فلسفة تمييز يوم العيد على سائر الأيام، وتمييز هذه الأمة على باقي الأمم، ويقرؤه عالم النفس فيرى فيه أن ضرب الدف والتغني بما صار بين المسلمين بالأمس من حروب بمثابة تطهير، إذ عن طريقه سيتم تفريغ الانفعالات القوية عند الطفل بحيث يستطيع بعدهما أن يتوافق مع المطالب الاجتماعية بشكل أكثر يسرا[94].

وكان الشيخ عبد السلام الأسمر لا يستريح عند هيجان الحال وإحراق الوجد إلا بسماع الدف، استنادا إلى أن ضرب الدف، كما في الحديث السابق، غير خارج على السنة، ولا داخل في البدعة، وكذلك انسجاما مع وصاياه التي جاء فيها: « ولا منجا أنجى لكم من سنة النبي ﷺ، فعليكم بإتباع السنة المحمدية »[95]. ويقول: « ولا نأمركم إلا بما أمر به النبي عليه الصلاة والسلام، وعليكم باتباع السنة واجتناب البدعة »[96].

91- البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة باب سنة العيدين، حديث رقم 899.

92- مسلم في كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب، حديث رقم 1479، والترمذي كتاب المناقب، باب مناقب عمر، حديث رقم 3623.

93- النسائي في سننه، كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في الاستماع إلى الغناء وضرب الدف، حديث رقم 1579.

94- راجع: شرح النووي على صحيح مسلم ج6 ص 183، 184، وعبد السلام الأسمر، آراؤه وأفكاره في ميزان الشريعة الإسلامية، ص21 - 23.

95- تنقيح روضة الأزهار، كريم الدين البرموني ص 180، 181.

96- الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر ص 59، 107.

تنبيه

لابد من التفريق بين حالين: حال اتباع سبيل الإيمان، وحال اتباع سبيل الشيطان، حتى لا يختلط الأمر بالنسبة للوجد فيظن أن الحالين متساويان.

فالحال الإيماني ثمرة من ثمار متابعة العبد لله ورسوله ﷺ والالتزام بالشريعة الإسلامية، وهنا فلا حرج في الوجد ولا إثم على من يرد عليه، وحال اتباع سبيل الشيطان، وسببه الشرك والكفر بالله والفجور والانحراف عن طاعة الله، فهو ناشئ عن القرب من الشيطان والاتصال به وبأعوانه، ومشابهتهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه، وهذا نوع منهي عنه وصاحبه آثم مطرود من رحمة الله.

يقول الشيخ الأسمر: «وإياكم والاستدراج واتباع نزغات الشيطان اللعين في اليقظة والنوم، فإنه يغرى المؤمن بالأحلام الكاذبة، والصادقة والتأثيرات، وهي التي يقول عنها العامة العربون، ويعمل مكاشفات وقضاء حاجات وارتعاش في الأذكار ... وطيرانا في الهواء، ومشيا على الماء وصحبة الناس، وغير ذلك، فهذه كلها من علامات الاستدراج إذا وقعت من المغرور، وهو الذي يكون منكبا على الدنيا ... تابعا لهوى نفسه مجاهرا بالبدع المحرمة طائعا للناس، لا يعبأ بفرض ولا بسنة ولا أدب، فمن كان هكذا، وظهرت منه العلامات المذكورة، فإنه مستدرج لا محالة، وتلك العلامات لا تكون ربانية، إلا إذا خرجت من رجل تابع للكتاب والسنة زاهد في الدنيا، مستغرق أوقاته بالذكر والعبادة بالشوق والوجد والمحبة قد مزقت قلبه، وقلبه غائب عن الخلق متعلق بالحق سبحانه وتعالى، فمن كان هكذا وصدرت منه تلك العلامات فإنها ربانية»[97].

وهكذا يعترف الشيخ بالوجد كحقيقة مسلمة قد تعرض للمسلم في حالة تأدية بعض العبادات، ويتم من خلالها استفراغ الحالة الوجدانية. وكذلك يرى أن الوارد إذا كان سببه شرعيا كالذكر وتلاوة القران وصدر من صاحبه شيء ينافي الشريعة فلا لوم عليه، أما إذا كان السبب غير شرعي فيحذر منه وفيه الحرج.

وقد نهى الشيخ الأسمر صاحب الوجد أن يفرح بوجده، وبالوارد الذي يرد إليه يقول في وصاياه: «والرؤيا الصالحة كرامة من الله تعالى مثل رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأولياء، وشبه ذلك، ولا تفرحوا بها، ولا بمكاشفة، ولا بمحاضرة، ولا بمشاهدة

97- تنقيح روضة الأزهار ص 192.

ولا بوجد ولا بتواجد ولا بخمره ولا بسكر ولا بطيران في الهواء، ولا بخرق العادة، ولكن يكون فرحكم بالذي خلقكم من العدم، وخلق لكم ذلك الحال الواقع بكم، ومن فرح بشيء سوى الله من هذه الدرجات وشبهها، فإنه جاهل بالله تعالى، لأنه فرح بغير الله عز وجل، ومن أحب شيئا وفرح به، فهو عبد له، فليكن فرحكم بالله عز وجل»[98].

ولا يتبادر إلى الذهن أن الشيخ الأسمر ينهى عن الفرح كله، ولكن لابد أن يكون الفرح مصحوبا بتعلق القلب بالله تعالى، أما إذا كان الفرح لغرض من أغراض الدنيا الذي يصرف العبد عن الله تعالى، فهذا ما نهى عنه الشيخ الأسمر.

وكذلك الفرح الذي يظن فيه صاحبه أنه متفضل على غيره من الناس، بمجهود دنيوي حصّله، أو بعرض زائل، ذلك أن هذا النوع من الفرح يبسط النفس، ويمنيها، وينسيها عيوبها وآفاتها، ونقائصها، إذ لو استحضرت النفس هذا النقص منها لشغلها عن الفرح، كما أن هذا النوع من الفرح بالنعمة ينسي صاحبه تذكر المنعم فينشغل بها عنه حتى يغيب بها عنه.

وهكذا يكون الوجد عند الشيخ الأسمر حالة تعتري العبد من كثرة ذكره لله تعالى، ومن كثرة مراقبته لله تعالى، وإذا ما انتابت هذه الحالة العبد فعليه أن يزداد في شكره لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

وبعيدا عن القرب من الله تعالى، والاجتهاد في العبادة آناء الليل وأطراف النهار، ومتابعة سنة النبي ﷺ فلا يمكن أن يسمي العبد ما يعتريه بالوجد، وإنما هو استدراج، يوجب على العبد أن يراجع حاله مع الله تعالى.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد، فبعد هذه السياحة في بحر أنوار وتجليات التصوف عند الشيخ عبد السلام الأسمر، تتبين الحقائق التالية:

1. أن التصوف ليس أسلوبا من الأساليب التي يحيا الصوفي بمقتضاها، بل هو منهج ذوقي وتجربة ذاتية روحية تخص من يعانيها ويكابدها، فضلا عن أنها لا تخضع لحكم العقل ومقولاته.

98- تنقيح روضة الأزهار ص193.

2. إذا كانت التجربة الصوفية حال ذاتية فيلزم عن ذلك تفاوت التجارب وفقا لمقام كل صوفي في الطريق، واستعداده الروحي، وكذلك يلزم تفاوت أحوال الصوفي الواحد في أوقاته المختلفة وفقا لاستعداده وحالته النفسية وترقيه في الطريق.
3. أن التصوف هو المظهر الروحي الديني الحقيقي عند المسلمين، لأنه المرآة التي ينعكس على صفحتها الحياة الروحية الإسلامية في أخص مظاهرها، فإذا أردنا أن نعرف شيئا عن الصلة الروحية بين المسلم وربه، كيف يصور هذه الصلة، وكيف يجاهد طول حياته في توكيدها ودعمها، وجب أن نقرأ سير الصوفية المسلمين ونتدبر أقوالهم.
4. اهتم المنهج الصوفي في أساليبه بالسلوك باعتباره العامل الحاسم، وتحقق السلوك إنما يتم عن طريق وجود القدوة، ولقد كان رسول الله ﷺ أعظم حافز لمن يريد السلوك الحق.
5. أن الشيخ عبد السلام الأسمر أسس منهجا صوفيا له أصول ومعالم، عاش طيلة حياته في سبيل تشييد هذا المنهج، متأثرا فيه برجال المدرسة الشاذلية، ومن ثم أسس زاويته التي تربى فيها الكثير من العلماء، وما زالت منارة للعلم والعلماء.
6. اعتمد الشيخ الأسمر في منهجه الصوفي على أساس بناه على العقيدة الصحيحة، والالتزام بإقامة التكاليف الشرعية، مستمدا تعاليمه من القرآن الكريم، والسنة النبوية، ولم يأل جهدا في تعليم ذلك.
7. تعد التربية معلما من معالم المنهج الصوفي عند الشيخ الأسمر وهي تعتمد على شيخ تتوفر فيه الصفات الحسنة، يستطيع أن ينهض بأتباعه ومريديه، ويأخذ بهم إلى بر الأمان، ومريد تتوافر فيه الصفات الحسنة، مع شيخه ومع إخوانه وسائر الناس، وتكون العلاقة بين الشيخ والمريد علاقة قوية يربطها عهد متين.
8. يعد ذكر الله تعالى معلما من معالم المنهج الصوفي عند الشيخ الأسمر أكد عليه في وصاياه، وذلك بشرائط وآداب مخصوصة، قبل الذكر، وفي أثناء الذكر، وبعد الذكر.
9. استطاع الشيخ الأسمر بالاجتهاد في ذكر الله تعالى، وطاعة الله والاقتداء بالنبي ﷺ أن يصل إلى حال الوجد، والغفلة عما سوى الله تعالى، مبينا أن ذلك غير ممنوع إذا ما كان في ظل اتباع محكم لكتاب الله وسنة النبي ﷺ.

توصيات البحث

1. العمل على تصفية التراث الصوفي الذي خلفه مشايخ الصوفية، مما يمكن أن يكون

قد علق به من شوائب، وذلك بالبحث والتمحيص.

2. بيان التصوف الأصيل، من التصوف الدخيل، حتى لا تختلط المفاهيم، ويطلق العنان للألسنة أن تعطي حكما على التصوف لا يليق به.
3. إظهار بعض الأخطاء التي يرددها أدعياء التصوف، وتنسب إلى التصوف، مما يسفر عن ترويج الإشاعات، وإلصاق التهم بالتصوف.